

الإسلام فوبيا والإمبريالية في أدب الرحلة بالغرب خلال القرن 18م:
المستشرق الفرنسي فولني Volney (1757-1820م) أنموذجاً

Islamophobia and Imperialism in 18th-Century Western Travel Literature:

The French Orientalist Volney (1757-1820) as a Case Study

د. حفيظ الرشيد*

جامعة عبد المالك السعدي، كلية أصول الدين - تطوان (المملكة المغربية)
hafidrachid206@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/10

تاريخ القبول: 2026/05/16

تاريخ الإرسال: 2023/12/29

ملخص:

يروم هذا المقال الإجابة عن الإشكالية الآتية: إلى أي مدى أسهم الاستشراق الإسلام فوبي المدثر بدثار أدب الرحلة في خدمة المشروع الإمبريالي الفرنسي في منطقة الشرق الإسلامي (مصر والشام) خلال أواخر القرن 18م؟ ومن هذا المنطلق، سعت هذه الدراسة إلى بيان مظاهر حضور الخطاب الإسلام فوبي عند المستشرق والرحالة الفرنسي فرنسوا فولني، مع بيان أثر هذا الأخير في توفير الغطاء المعرفي والاستخباراتي للحملة الفرنسية ضد مصر والشام (1798-1801م).

الكلمات المفتاحية: الإسلام فوبيا، أدب الرحلة، الاستشراق، فرنسا، الإمبريالية.

Abstract:

This article aims to answer the following problem: To what extent did Islamophobic Orientalism, disguised as travel literature, contribute to serving the French imperial project in the Islamic East (Egypt and the Levant) during the late 18th century? From this standpoint, this study sought to clarify the various signs of Islamophobic discourse in the work of the French orientalist and traveler François Volney, while also demonstrating the latter's role in providing the cognitive and intelligence cover for the French campaign against Egypt and the Levant (1798-1801).

Keywords: Islamophobia, travel literature, Orientalism, France, imperialism

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلى آل بيته الغر الميامين، مصابيح الدجى، وأئمة الهدى، وارض اللهم على الصحابة أهل البر والتقوى. أما بعد:

فما لا شك فيه أن ظاهرة الإسلام فوبيا في الغرب عموماً، وفي الجمهورية الفرنسية خصوصاً قد انتشرت انتشار النار في الهشيم، إلى درجة أن الجاليات الإسلامية في هذا القطر الأوربي في القرن الحادي والعشرين أضحت فريسة لخطاب عنصري إقصائي قائم على منطق وصم الإسلام والمسلمين بالإرهاب والرجعية. والمتأمل في هذه الخطاب يتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذه النزعة الإسلام فوبية ليست وليدة العصر الحالي، وإنما هي نتيجة منطقية لتراكمات فكرية وتاريخية تعود إلى قرون خلت، حيث يمكن القول بأن من المحطات التاريخية المؤسسة للإسلام فوبيا في الغرب، محطة عصر الأنوار خلال القرن 18م. وفي هذا الإطار، وقع الاختيار على تحرير مقالة علمية بعنوان: «الإسلام فوبيا والإمبريالية في أدب الرحلة بالغرب خلال القرن 18م: المستشرق الفرنسي فولني Volney (1757-1820م) أنموذجاً»

وقد اصطفيت هذا الموضوع بالتحديد لعاملين أساسيين هما: العامل الأول يتمثل في السعي إلى البحث عن الخلفية الفكرية العميقة المفسرة لاستفحال إشكالية الإسلام فوبيا داخل السياق الفرنسي المعاصر. أما العامل الثاني فهو مرتبط بمحاولة كشف النقاب عن استغلال المؤسسة العسكرية الفرنسية للخطاب الاستشراقي خلال أواخر القرن 18م بوصفه وسيلة مهيأة لاحتلال مصر والشام.

ومن هذا المنطلق، يتوخى هذا المقال الإجابة عن الإشكالية الآتية: إلى أي مدى أسهم الاستشراق الإسلام فوبي المدثر بدثار أدب الرحلة في خدمة المشروع الإمبريالي الفرنسي في منطقة الشرق الإسلامي (مصر والشام) خلال أواخر القرن 18م؟ حيث استندتُ إلى ثلاثة مناهج علمية:

المنهج الوصفي: المتمثل في تقديم تصورات فولني حول مصر والشام بمنتهى الموضوعية والأمانة.

المنهج التحليلي: المرتبط بتحديد السياق الجيوسياسي والفكري المفسر لمواقف فولني العدائية ضد الدين الإسلامي الحنيف.

المنهج النقدي: يتعلق بإيضاح تهاافت وبطلان الصور النمطية السلبية التي روج لها فولني، مع إثبات الوشائج القوية التي تجمع العقل الاستشراقي بالآلة الحربية الإمبريالية الفرنسية. وقد قسمت هذه الورقة العلمية إلى مدخل مفاهيمي، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

في المدخل المفاهيمي تطرقت إلى تبيان بعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بالموضوع، من قبيل: الإسلام فوبيا، وأدب الرحلة، والاستشراق. وفي المبحث الأول تحدثتُ عن نبذة وجيزة عن سيرة المستشرق الفرنسي فولني، مع إعطاء تقديم إجمالي لكتابه الموسوم بـ "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام".

وفي المبحث الثاني، قمت بتجلية أهم معالم الخطاب الإسلام فوبي عند فولني، مميطاً اللثام عن تهافتها وبطلانها وبعدها عن منطق الإنصاف والموضوعية.

أما المبحث الثالث فقد خصصته لإثبات الصلة الوثيقة التي جمعت المستشرق الفرنسي فولني بخدمة الأهداف الإمبريالية للحملة الفرنسية ضد مصر والشام خلال أواخر القرن 18 م.

مدخل مفاهيمي

المطلب الأول: مفهوم الإسلام فوبيا

يعد مصطلح الإسلام فوبيا Islamophobia من المصطلحات الحديثة التداول التي تعكس علاقة الصراع والصدام بين الغرب والإسلام، وهو مصطلح مركب من كلمتين: كلمة عربية هي: "الإسلام"، وكلمة يونانية: "فوبيا".

1. الإسلام لغة واصطلاحاً: انطلاقاً من أبرز أمهات معاجم اللغة العربية، يحيل لفظ الإسلام لغة على معاني الاستسلام والخضوع والانقياد لأمر الأمر¹. أما من الناحية الاصطلاحية، فهو يطلق على معنيين²:

- معنى عام: الاستسلام والخضوع والانقياد لأمر الله تعالى، في كل جانب من جوانب الحياة، وهو بهذا المعنى دين الرسل جميعاً عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 112).
- معنى خاص: الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 85). والإسلام بهذا المعنى ناسخ لكل الرسالات السابقة، وواجب على كل الناس الدخول فيه، للنجاة من عذاب النار، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، لا يهوديٍّ، ولا نصرانيٍّ، ثمَّ يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النارِ»³.

¹ ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979م، 90/3. ابن منظور، جمال الدين محمد. لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر وعبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م، ط2، 341/12.

² الملكاوي، محمد وآخرون. عقيدتنا الإسلامية، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017م، ص 137-138.

³ القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، حديث رقم: 386.

الإسلام اصطلاحاً هو دين الله الذي أوحاه إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهو إيمان وعمل والإيمان يمثل العقيدة، والأصول التي تقوم عليها شرائع الإسلام، ومنها تنبثق فروعه. والعمل يمثل الشريعة، والفروع التي تعتبر امتداداً للإيمان والعقيدة.¹

2. فوبيا لغة واصطلاحاً: مصطلح فوبيا مشتق من كلمة يونانية phobos وتعني "خوف".²

اصطلاحاً ترد كلمة الفوبيا في القواميس النفسية بمعنى الخوف المرضي والخواف، والرغبة أو الرهاب.³ وفوبيا قلق عصبي أو عصاب نفسي لا يخضع للعقل ويساور المرء بصورة جامحة من حيث كونه رهبة في النفس شاذة عن المألوف تصعب السيطرة عليها أو التحكم فيها، ينطوي على طابع مرضي.⁴

إذن الإسلام فوبيا اصطلاحاً خوف وكره وعداء نفسي واجتماعي غير مسوغ ضد الإسلام والمسلمين، تعبر عنه مواقف سلوكية عاطفية إدراكية سلبية نحو الأفراد والنظم الاجتماعية الخاصة بالإسلام والمسلمين، وينعكس في ممارسات الإقصاء والتمييز ضد المسلمين.⁵

¹ سابق، السيد. العقائد الإسلامية، دار الفكر، بيروت، دط، 1978م، ص 7. من أجل الاطلاع على مقاربات هذا المصطلح عند الفرق الكلامية الإسلامية مثل: المعتزلة والأشاعرة والحنابلة، ينظر: سليمان، فاتح محمد. التطور الدلالي لمصطلحات العقيدة دراسة مقارنة بين أهل الحديث والمعتزلة والأشاعرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2019م، ص 341-356.

² جيبال، كلود. إسلامستان - وجوه التطرف، ترجمة: عبد المجيد المهلي، تقديم: علاء الاسواني، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ط 1، القاهرة، 2017م، هامش ص 156. بولعوالي، التجاني. الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب: نحو مقارنة تأصيلية تفكيكية لظاهرة الإسلاموفوبيا، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2021م، ص 37.

³ اللهيبي، فائز صالح. إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية والواقع الإسلامي، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2009م، ص 30.

⁴ عواد، محمود. معجم الطب النفسي والعقلي، دار أسامة، عمان، دط، 2011م، ص 309.

⁵ شاكر، إياد صلاح. ظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) في الغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2019م، ص 26.

ومن ثمة فالإسلام فوبيا هي بمثابة تشويه لحقيقة الإسلام البريء مما يُلصق به، وتمييز ضد الشريحة المسلمة الضعيفة أو المستضعفة التي يسكنها خوف وجودي عن مصيرها منذ وطأت أقدامها أرض الغرب¹، فكيف للخائف إذا أن يكون مصدراً للخوف؟².

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المفهوم ظهر لأول مرة على يد الدكتور الفرنسي آلان كيليان Alain Quellien (1885-1915) عام 1910م في عمله الذي عنوانه بـ "La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française" السياسة الإسلامية في غرب أفريقيا الفرنسية" والذي قال فيه: "الإسلاموفوبيا: لقد كان موجوداً دائماً" لقد كان، ولا يزال، تحيزاً ضد الإسلام بين شعوب الحضارة الغربية والمسيحية. بالنسبة للبعض، المسلم هو العدو الطبيعي الذي لا يمكن التوفيق بينه وبين المسيحي والأوروبي³.

¹ الغرب: Occident يطلق مصطلح الغرب من الزاوية الجيوسياسية على دول حلف الشمال الأطلسي (NATO)، ومن أبرزها: الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا. أما من الناحية الحضارية، فيحيل هذا المفهوم على نسق إيديولوجي مرتبط بعدة مفاهيم فلسفية، من أهمها: العقلانية، والعلمانية، والديمقراطية، والحدثة، والعولمة، وما بعد الحدثة، والتي هي بمثابة عصارة لأحداث تاريخية عظيمة، بدءاً باكتشاف أمريكا سنة 1492م، مروراً بعصر الأنوار خلال القرن 18م، والثورة الفرنسية سنة 1789م، والثورة الصناعية في القرن 19م، وصولاً إلى الثورة التكنولوجية في القرن 20م. من أجل الاطلاع على تفاصيل وافية حول هذا المصطلح، ينظر: الفراك، أحمد. المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشارك الإنساني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2021م، ص30-33. قرم، جورج. تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة: رلى ذبيان، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011م، ص45-49.

² بولعوالي، التجاني. الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، مرجع سابق ص251.

³ «l'islamophobie : il y a toujours eu, et il y a encore, un préjugé contre l'islam chez les peuples de civilisation occidentale et chrétienne. Pour d'aucuns, le musulman est l'ennemi naturel et irréconciliable du chrétien et de l'Européen». Quellien, Alain. La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française, éditions Emile Larose, Paris, 1910, p.133.

المطلب الثاني: أدب الرحلة مفهومه، وخصائصه، وتاريخ ظهوره بالغرب

1. أدب الرحلة لغة واصطلاحاً:

- الرحلة لغة: لفظ الرحلة في اللغة العربية يفيد السفر والوجهة أو الانتقال، أو المقصد الذي يراد شد الرحال إليه¹. وحسب أشهر معاجم اللغة الفرنسية لاروس Dictionnaire Larousse الرحلة، voyage هو الذهاب، أو الانتقال إلى مكان آخر بعيد أو أجنبي نسبياً؛ والإقامة أو الرحلة التي يتم القيام بها بهذه الطريقة².

يتضح إذن أن اللغتين العربية والفرنسية تتقاسمان التصور ذاته حول مفهوم كلمة رحلة الذي يعني الانتقال والسفر من مكان إلى آخر.

- أدب الرحلة وفق الاصطلاح الأدبي: أدب الرحلة مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد³.

ويقوم أدب الرحلة على السرد القصصي الذي يحكي مشاهدات وانطباعات الكاتب الرحالة في البلاد التي يزورها، حيث يتم التركيز على وصف الطبيعة الجغرافية، أو نبذاً عن التاريخ، أو عادات الناس، وتقاليدهم وأنماط عيشهم وتفكيرهم⁴.

¹ الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005م، ص 1005. إبراهيم، أنيس وآخرون. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004م، ص 334-335.

² Action de voyager, de se rendre ou d'être transporté en un autre lieu Action de se rendre dans un lieu relativement lointain ou étranger ; séjour ou périple ainsi fait.
<https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/voyage/82584>

³ وهبة، مجدي والمهندس، كامل. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص 17.

⁴ الشعار، فواز. الموسوعة الثقافية العامة، إشراف: إميل يعقوب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1999م، ص 197.

Corlan Ioan, Simona et autres. Voyages réels, voyages imaginaires : perspectives interdisciplinaires, Editura Universității din București - Bucharest University Press, 2022, p164.

2. خصائص ادب الرحلة:

إن أدب الرحلة يتميز عن بقية الأجناس الأدبية؛ لانسامه بجملة من الخصائص والمميزات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً/ الحس الواقعي: بخلاف الروائي التي ينطلق من ملكاته الخيالية من أجل بناء الحكمة السردية، يدأب الرحالة على توثيق أحداث حقيقية، مع تقديم أشخاص وأماكن وأزمنة موجودة على أرض الواقع؛ وهو ما يؤهل هذا الجنس الأدبي إلى أن يكون أحد المراجع الثرية للباحثين في مجالي التاريخ والجغرافيا.

ثانياً/ الذاتية: تعد الذاتية من أهم سمات أدب الرحلة؛ بحكم الحضور البارز لشخصية الرحالة داخل متن نصه الأدبي، وذلك من خلال استخدام ضمير المتكلم أنا أو بواسطة التعبير عن خواطره وأحاسيسه وانطباعاته الشخصية حول الأماكن التي حل بها.

ثالثاً/ الانفتاح على بقية الأجناس الأدبية: يتميز أدب الرحلة بانفتاحه على بقية الأجناس الأدبية؛ بدليل أنه يوظف فن الشعر، والقصة، والحكاية؛ وهو ما يجعل الرحالة شاعراً وروائياً وحكواتياً في نفس الآن.

رابعا/ التسلسل الزمني: يراد به حرص الرحالة الراوي على تعيين نقطة بداية الرحلة ونقطة نهايتها من الزاويتين الزمانية والمكانية؛ وذلك من أجل مساعدة المتلقي على فهم واستيعاب مقصود التجربة السفرية التي يريد الرحالة إيصالها¹. ومن أوائل المصنفات الرائدة في هذا الجنس الأدبي بأوروبا خلال القرون الوسطى هو كتاب "وصف العالم" 1298م للرحالة الإيطالي ماركو بولو Marco Polo (1254-1324م)².

¹ Atelier les Eclaireurs. «Le récit de voyage : partez à l'aventure à travers les mots», publié le 9 juin 2023.

<https://atelier-les-eclaireurs.com/recit-de-voyage-aventure-a-travers-les-mots/#:~:text=Quelles%20sont%20les%20caract%C3%A9ristiques%20d,d%C3%A9tail%C3%A9es%20qui%20%C3%A9veillent%20les%20sens.>

² Corlan Ioan, Simona et autres. Voyages réels, voyages imaginaires : perspectives interdisciplinaires, Editura Universității din București - Bucharest University Press, 2022, p164.

المطلب الثالث: الاستشراق لغة واصطلاحاً

1. الاستشراق لغة: استشراق مصدر الفعل السداسي استشرق، وأصله ش ر ق والألف والسين والتاء إذا سبقت الفعل الثلاثي تفيد الطلب، وبالتالي فكلمة استشراق تعني طلب الشرق، والشرق بمعنى جهة طلوع وشروق الشمس¹.

أما فيما يتعلق بمدلول هذا المصطلح في اللغة الفرنسية، فالاستشراق يقابله لفظ Orientalisme والشرق Orient ومستشرق orientaliste. حسب معجم Larousse 2023. الاستشراق علم الشرق تاريخ، لغات، آداب، فنون، علوم، عادات، أديان شعوب الشرق. وهو كذلك الميول نحو أشياء الشرق².

2. الاستشراق اصطلاحاً: حسب الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي (ت.1973م) نعي بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذي يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية³.

ووفقاً لوجهة نظر الأكاديمي الفلسطيني الأصل الأمريكي الجنسية إدوارد سعيد (ت.2003م) الاستشراق مبحث أكاديمي، والمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو بإجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أو علم الاجتماع أو علم التاريخ أو فقه اللغة⁴.

أما الأكاديمي والمؤرخ الفرنسي جان فرنسوا كلين Jean-François Klein (1969م-) فقد ذهب إلى أن الاستشراق هو مجمل الحقل التخصصي الذي يدور موضوعه حول دراسة الحضارات الشرقية باستخدام علم النقوش وعلم الآثار، مع ضرورة إتقان اللغات الشرقية. والمستشرق هو الذي يدرس الاستشراق وقد اتسع عموماً في أواخر النصف الأول من ق 19م ليشمل دراسة الحضارة من المغرب إلى الهند مروراً بالشرق⁵.

¹ العليان، عبد الله علي. الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003م، ص.9. حمد، عبد الله حضر. القرآن الكريم وشبهات المستشرقين قراءة نقدية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2018م، ص.13.

² <https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/orientalisme/56476>

³ ابن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1969م، ص.5.

⁴ سعيد، إدوارد. الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2006م، ص.44.

⁵ Jean-François Klein, « L'histoire de l'Indochine en situation coloniale. Entre histoire et orientalisme (1858-1959) », in La construction du discours colonial : l'empire français aux XIXe et XXe siècles, Oissila Saaïdia and Laurick Zerbin (éd.), Paris, Karthala, 2009, p. 89-124 ; p 93.

من خلال ما سبق يتبين لنا جلياً أن الاستشراق يتضمن معنيين أساسيين:

✓ معنى عام: يراد به دراسة علماء الغرب لمختلف حضارات الشرق (العرب والفرس والترك ...)

✓ معنى خاص: انكباب علماء الغرب على سبر أغوار الحضارة العربية الإسلامية في شتى الميادين المتعلقة بعلوم النقل وعلوم العقل في كافة الأطوار التاريخية خصوصاً خلال القرون الوسطى وعلى مساحة جغرافية تضم الشرق والغرب الإسلاميين.

المبحث الأول: التعريف بقولني وبكتابه "ثلاثة أعوام في مصروبر الشام"

المطلب الأول: ترجمة موجزة لحياة قولني¹

قسطنطين فرانسوا قولني Constantin-François Volney (1757-1820م) فيلسوف، ومؤرخ، ورحالة، ومستشرق وسياسي فرنسي. عندما كان عمره سبع سنوات، أرسله والده إلى كلية أنسينيس، ثم انتقل بعد ذلك إلى مصلى أنجيه تحت اسم Boisgiret (أو Boisgirais). وقد عُرف بهذا اللقب أول مرة، حتى رحيله إلى المشرق، حيث اختار أن يأخذ لقب قولني، وهو اختصار لفولتير Voltaire وفيرني Ferney² إعجاباً بهذا الفيلسوف.

قولني هو سليل أسرة أرستقراطية فرنسية؛ بدليل أنه كان يحمل لقب كونت COMTE الكونت³. تحرر في سن التاسعة عشرة، وتمتع بدخل قدره ألف ومئة جنيه من تركة والدته، وذهب قسطنطين فرانسوا شاسيبوف دي لا جيروداي إلى باريس لدراسة العلوم: الطب، على الرغم من أن الممارسة لا تهمه، والتاريخ واللغات الشرقية. على الرغم

¹ <https://www.britannica.com/biography/Constantin-Francois-de-Chasseboeuf-comte-de-Volney> <https://areq.net/m.html> قسطنطين فرانسوا قولني <http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb119286612>

Barni, Jules Romain. Les moralistes français au dix-huitième siècle, éditions Germer Baillière, Paris, 1873, pp 190-208

²فيرني: Ferney: مدينة فرنسية اسمها فيرني فولتير Ferney-Voltaire تقع على الحدود الفرنسية السويسرية. حيث شيد بها الفيلسوف الفرنسي قصراً سنة 1759م.

³الكونت: COMTE لقب كان يطلق في أوروبا خلال العصور الوسطى على النبلاء المنحدرين من عائلات ملكية، ثم بعد ذلك صار يعطى للشخصيات الثرية. والكونت مرتبة أعلى من البارون وأدنى من الماركيز. صاحبها يتمتع بالسيطرة على قطعة أرضية معينة. دويل، وليام. الأرستقراطية مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: زينب عاطف، مراجعة: هاني فتحي سليمان، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2016م، ص23-24.

من أنه بدأ دراسة القانون، إلا أنه لم يرغب في أن يصبح محامياً، وهو ما كان غالباً لقباً وليس مهنة في القرن الثامن عشر عندما كان طالباً في باريس، كان قولني يتردد على صالون السيدة آن كاثرين هيلفيتيوس Anne-Catherine de Ligniville Helvétius (ت1800م) أرملة الفيلسوف الفيلسوف والموسوعي الفرنسي كلود أدريان هلقيتيوس Claude Adrien Helvétius (ت1771م). وكان على صلة بالفيلسوف والسياسي الأمريكي بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin (ت1790م).

بعد اهتمام مبكر بالتاريخ واللغات القديمة، شد قولني الرحال نحو مصر وسوريا، وبعد ذلك كتب سنة 1787م "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام". وفي عام 1791م، ظهر عمله الأكثر تأثيراً، *Les Ruines, ou méditations sur les révolutions des Empires* (الآثار: أو مسح لثورات الإمبراطوريات). بحثاً عن أصول المجتمع المدني وأسباب انحلاله، رأى الثورة نتيجة للتخلي عن مبادئ القانون الطبيعي والدين والمساواة والحرية.

بصفته عضواً في الجمعية التأسيسية سنتي 1789م و1790م، دعا قولني إلى إنشاء الحرس الوطني وتقسيم فرنسا إلى كوميونات وإدارات. وفي عام 1792م، اشترى عقاراً في كورسيكا قطعة أرضية من أجل استغلالها في المجال الفلاحي. وخلال زيارة إلى مدينة باريس عام 1793م، سُجن بصفته من الجيرونديين¹ خلال عهد الإرهاب². وبعد إطلاق سراحه، أصبح أستاذاً للتاريخ في مدرسة المعلمين في باريس سنة 1794م. وزار أيضاً الولايات المتحدة

¹الجيرونديون: girondins أعضاء حزب سياسي فرسي ظهر أثناء الثورة الفرنسية 1789م. وجاءت تسمية الحزب بهذا الاسم؛ لأن معظم القادة المنظمين له ينتمون لمقاطعة جيروند (مقاطعة فرنسية تقع جنوب غرب البلاد عاصمتها بوردو). وتقوم فلسفة هذا الحزب على مناهضة النظام الملكي والدعوة إلى إرساء نظام جمهوري فيدرالي. والجيرونديون جمهوريون يمثلون البرجوازية (الطبقة المتوسطة) ويؤمنون بالملكية الخاصة. جاء الجيرونديون إلى الحكم بناء على دستور عام 1791م. وفي شهر يونيو من عام 1793م أجبرت مظاهرة من عامة الناس في باريس المؤتمر المحلي على إزاحة واعتقال الجيرونديين. وقعت الحكومة تحت سيطرة العاقبة وهم جمهوريون يؤمنون بسيطرة باريس. كما تم إعدام العديد من الجيرونديين بالمقصلة أثناء عهد الإرهاب في الثورة الفرنسية.

https://3arf.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%8A%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%AF%D9%8A%D9%88%D9%86#google_vignette

²(الإرهاب) LA TERREUR مصطلح سياسي أطلق على الحقبة الأكثر دموية في تاريخ الثورة الفرنسية بين فسطاط الجمهوريين وفسطاط الملكيين (1792-1794م). وقد نجم عن هذا الصراع السياسي على السلطة إعدام 17 ألف فرنسي واعتقال أزيد من 300 ألف شخص، فضلاً عن مقتل الألوف في السجون دون محاكمة. الزمل، ناصر بن محمد. لماذا يكرهونها...؟، مكتبة العبيكان للنشر، الرياض، 2004م، ط1، ص 14.

من 1795 إلى 1798م. فضلا عن ذلك فهو عضو بمعهد أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية عام 1795م، وبالأكاديمية الفرنسية عام 1803م.

له الكثير من التصانيف بالفرنسية، وقد نقل منها إلى العربية كتابين وهما:

فولني، قسطنطين فرنسوا - «سوريا ولبنان في القرن الثامن عشر». ترجمة حبيب السيوفي (صيدا 1949م)

س. ف. فولني - «ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام». ترجمة إدوار البستاني وزارة التربية الوطنية والفنون (بيروت 1949 م).

المطلب الثاني: كتاب "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام" والسياق السياسي والفكري لظهوره

1. مضمون كتاب "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام":

إن كتاب "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام" الذي ألفه المستشرق والرحالة الفرنسي فرنسوا فولني سنة 1787م ينتهي إلى أدب الرحلة. وهو يتكون من مجلدين، حيث تطرق الكاتب بتفصيل إلى وصف دقيق للحالة السياسية والاجتماعية والطبيعية لكل من هذين القطرين العربيين المعبرين بجلاء عن صورة الشرق الإسلامي برمته. وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات (1783-1785م)، حيث حل فولني بالإسكندرية، والقاهرة، ويافا، وعكا، وصور، وصيدا، والاسكندرونة، وحلب، وطرابلس، ومار حنا (دير ماروني أقام فيه فولني ثمانية أشهر ليكمل دير معرفة اللغة العربية)، وأخيرا القدس وغزة.

ويتألف هذا المصنف من 65 فصلا جاءت على النحو الآتي:

- 5 فصول حول الحالة الطبيعية
- 15 فصلا حول الحالة السياسية بمصر
- 20 فصلا حول الحالة الطبيعية
- 25 فصلا حول الحالة السياسية بسوريا.

وقد بسط قولني الحديث في هذا الكتاب عن أهم المميزات الطبيعية المتعلقة بالمناخ ونهر النيل بمصر. كما رفع اللثام عن قضية سيطرة المماليك على كل مفاصل الدولة المصرية في تلك الحقبة التاريخية، منتقدا بشكل مباشر هذا الأمر لما ترتب عليه من هيمنة للاستبداد داخل المجتمع المصري. إضافة إلى ما سلف، لم ينس قولني أن يلمع إلى أن السواد الأعظم من الشعب المصري خلال أواخر ق 18م كان تحت وطأة تفشي الأمراض الخطيرة، كالعوى والجذري والطاعون.

فيما يتعلق بسوريا، فقد قدم قولني الخصائص الطبيعية (الجبال والأنهار والبحيرات والجيوفيزيائية الزلازل والبراكين) الخاصة بهذا البلد، مع تبين الوضع السياسي القائم آنذاك والممثل في تبعية سوريا سياسيا للسلطنة العثمانية. ومن حيث الخريطة العرقية فقد أشار قولني إلى وجود عرقيات متنوعة مثل: التركمان والأكراد والعرب. ومن الزاوية الدينية الطائفية، أشار إلى وجود المسلمين (دروز ونصيرية وأهل السنة) والمسيحيين (طائفة المارونيين).

2. السياق السياسي والفكري لظهور الكتاب

ظهر هذا الكتاب في الربع الأخير من القرن 18م في عهد الملك الفرنسي لويس السادس عشر Louis XVI (ت 1793م)، حيث كانت فرنسا تحت مظلة نظام ملكي قائم على الحكم المطلق. كما كان إصداره قبل سنتين تحديدا من اندلاع الثورة الفرنسية سنة 1789م التي شكلت منعطفًا حاسمًا في تاريخ فرنسا خصوصا، وفي تاريخ الغرب على وجه العموم. علاقة بالشرق الإسلامي (سوريا ومصر)، فقد كان تحت سيطرة الخلافة العثمانية التي امتد نفوذها آنذاك من الأناضول إلى الجزائر. وحري بالذكر أن هذه الخلافة بدأت تعرف خلال هذه الحقبة بداية التصدع والتقهقر.

ومن الناحية الفكرية، فقد عاصر المؤلف أبرز تيار فكري وثقافي عرفته أوروبا قاطبة، وفرنسا بصفة خاصة خلال القرن 18م المتمثل في عصر الأنوار الذي يعد حركة فكرية طُبعت بميسم إعلاء قيمة العقل والعلم ومحاربة الجهل والخرافة من جهة، ومعاداة الاستبداد السياسي والنظام الكهنوتي الكنسي من جهة ثانية.

المبحث الثاني: مظاهر الصور السلبية عن الإسلام في كتاب "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام" للمستشرق الفرنسي فرنسوا فولني

المطلب الأول: اتهام فولني للإسلام بالاستبداد السياسي

أكد المستشرق والرحالة الفرنسي فولني في كتابه "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام" أن الشرق الإسلامي (مصر والشام) في ظل الحكم العثماني خلال أواخر القرن 18 م كان يعيش تحت نير استبداد سياسي حاد، حيث قال مبيناً معاناة الشعب المصري آنذاك من ممارسة النظام المملوكي العثماني الشطط في السلطة: «فكل ما ترى وتسمع ينبئك أنك في بلد العبودية والطغيان. فلا تسمع إلا أحاديث الاضطرابات الأهلية والفقر الشامل والابتزاز بالمال والضرب (...) ويسفك دم الرجل كما يسفك دم الثور»¹.

وموضحاً غياب أدنى شروط المحاكمة العادلة في هذا البلد، قال فولني: «ضابط الليل في طوافه، وضابط النهار في تجواله يحاكمان ويحكمان وينفذان في لمحة بصر، ويرافقهما كليهما جلادون يقطعون الرؤوس عند أول إشارة يتلقونها»². وكأن فولني يريد أن يقول للقارئ بأن جهاز الشرطة في دولة المماليك في مصر كان يمثل القاضي والجلاد في الآن نفسه.

وقد انطبق هذا الوضع السياسي الاستبدادي بمصر -حسب تصور فولني- كذلك على بلاد الشام، حيث قال: «الحكم التركي في سوريا بمثابة استبداد عسكري خالص»³. وفي معرض بحثه عن سبب تفشي الاستبداد الشرقي، خلص فولني إلى أن القرآن له كفل من

¹ فولني. ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام، ترجمة: إدوار البستاني، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون، بيروت، 1949 م، 125/1.

« Tout ce que l'on voit ou que l'on entend annonce que l'on est dans le pays de l'esclavage et de la tyrannie On ne parle que de troubles civiles, que de misère publique, que d'extorsions d'argent, on verse le sang d'un homme comme celui d'un bœuf. » Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte pendant les années 1783, 84 et 85, éditions Courcier, 4EME édition, 1807, Volume 1, p. 164.

² فولني. ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام، مرجع سابق، ج 1، ص 125.

« Officier de nuit dans ses rondes, l'officier de jour dans ses tournées, jugent, condamnent et font exécuter en un clin d'œil et sans appel. Des bourreaux les accompagnent, et au premier ordre la tête d'un malheureux tombe dans le sac à cuire. » Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte, op cit, volume1, p 164.

³ « Le gouvernement des Turcs en Syrie est un pur despotisme militaire ». Ibid, volume2, p. 241

المسؤولية بهذا الخصوص؛ لأنه حسب منظوره هذا الكتاب -الذي يشكل مرجع أساسي للدولة العثماني- لا يحتوي على القواعد الأساسية للممارسة السياسية الديمقراطية. قال قولني: «أي شخص سيقراً القرآن، إلا وسيكون مجبراً على الاعتراف بأنه لا يقدم أي مصطلح أو واجبات للأفراد والمجتمع أو أي تكوين للهيئة السياسية ولا أية مبادئ لفن الحكم السياسة ولا أية مفردة منتمية للقانون التشريعي»¹. كما أشار إلى أن القرآن اقتصر فقط على بعض التشريعات المندرجة في نطاق الأحوال الشخصية، من قبيل: تعدد الزوجات، والطلاق، والإرث².

في هذا المقام يتوجب لفت الانتباه إلى ثلاث مسائل:

✓ أولاً/ إن رأي قولني القائل بتفشي الاستبداد في الشرق يعكس بجلاء تأثر هذا المستشرق بالفيلسوف الفرنسي مونتسكيو Montesquieu (ت1755م) صاحب نظرية الاستبداد الشرقي التي تحدث عنها في كتابه "روح القوانين"³.

✓ ثانياً/ رام قولني من خلال كشفه النقاب عن استفحال الاستبداد العثماني في الشرق تحقيق هدفين أساسيين مترابطين: الهدف الأول يكمن في انتقاد ضمني للعرش الفرنسي الذي كان يتمتع بسلطات واسعة في نطاق ما يسمى بالحكم المطلق Pouvoir absolu. أما الهدف الثاني فيتعلق بالرغبة في الإفلات من مقصلة الرقابة Censure التي كانت تصدر أي كتاب مناهض للملكية الفرنسية آنذاك⁴.

✓ ثالثاً/ قد أصاب قولني كبد الحقيقة حول ما ذكره حول السياسة الاستبدادية التي طبقتها السلطنة العثمانية في كل من مصر والشام، لكنه حاد عن منطق الإنصاف والموضوعية حينما حَمَلَ الإسلام وزر هذا الفساد السياسي، جاعلاً هذا الدين الحنيف وبعض ممارسات الحكام معاً في قفص الإدانة والاثام. فالقرآن الكريم الذي ناهض

¹ « Quiconque lira le Coran, sera forcé d'avouer qu'il ne présente aucune notion ni des devoirs des hommes en société, ni de la formation du corps politique, ni des principes de l'art de gouverner, rien en un mot de ce qui constitue un code législatif.» Ibid, volume2, p. 261.

² Ibidem.

³ El Diwani, Rachida. Entre l'Orient et L'Occident, éditions Lulu, press inc, morrisville, USA , 2006 p.95

⁴ Ibidim.

جميع ضروب الاستبداد لطالما شدد على مركزية قيمة العدل والإنصاف في السياسة الشرعية، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء:58). كما نادى بتطبيق مبدأ الشورى¹ أثناء ممارسة السلطة مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:38). وحث الله تعالى نبيه المؤيد بالوحي بالالتزام بهذه القاعدة السياسية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:159). وحسبنا أن بين دفقي القرآن سورة تسمى بـ "الشورى". أما السنة النبوية الشريفة فهي حافلة بالأحاديث الناهية عن الظلم والاستبداد والحيث والاعتداء؛ إذ عد النبي الأعظم الجهر بالحق أمام جور الحكام هو من أرقى مراتب الجهاد، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةً عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»². ومبيناً المكانة السنية التي يحتلها الحاكم المسلم العادل عند العدل سبحانه وتعالى، قال النبي ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ...»³.

إضافة إلى ما تقدم، تدل سيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين على تمسكهم بالهدى النبوي في هذا المضمار؛ إذ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه - في أول خطاب له بُعِثَ تقلده للخلافة وفق نظام الشورى، قال مؤكداً مركزية العدل والمساواة كأساس للحكم: «أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه

¹ الشورى: لغة الشورى مشتقة من الفعل (شَوَّرَ) ولشققاته عدة معان منها: استخراج الرأي وتقليبه. والشورى اصطلاحاً استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق. ويراد بها كذلك اجتماع أهل الحل والعقد نيابة عن الأمة على أمر للرأي فيه مدخل، والانتهاه إلى نتيجة ملزمة. وأركان الشورى أربعة: المستشار، المستشار، المستشار فيه، الرأي. الصلاحيات، سامي محمد. معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، وم.أ. ط1، 2007م، ص149-150. من أجل الاطلاع تفاصيل وافية حول مركزية الشورى في السنة النبوية ينظر: المحمدي، أحمد سلمان. أخلاقيات النظام السياسي في السنة النبوية ومقارنته بالنظم السياسية الوضعية، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2020م، ص187-192.

² الترمذي، محمد. سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم الحديث 2174، حديث حسن غريب.

³ القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم: 2380.

إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله (...). أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم».¹

قال المستشرق الأمريكي واشنطن ايرفينج Washington Irving (1783م-1859م)²

في كتابه "محمد وخلفاؤه" مادحاً تحلي النبي الأعظم ﷺ بخلق العدل والمساواة: «الرسول كان عادلاً يحب العدل، فقد كان يعامل الصاحب والغريب والفقير والغني والقوي والضعيف بالتساوي، وكان محبوباً بين الناس بسبب التفاته إلى الكل وسماعه من الجميع، وعدله المطلق بينهم».³

ومن الأقلام الغربية المعاصرة التي أبت إلا أن تقر بحضور فلسفة الديمقراطية في الإسلام، نذكر على سبيل المثال لا الحصر الباحث الأكاديمي والمستشرق الكندي المسلم جان أندرو مورو John Andrew Morrow (إلياس إسلام) (1971م-) الذي لم يخف إعجابه الشديد بمبادئ العدالة الاجتماعية المميزة لصحيفة المدينة إبان العصر النبوي، مقارنةً بدستور جمهورية روما سنة 509 ق.م الذي حول الحياة الديمقراطية إلى قسمة ضيزى، من خلال جعلها حكراً على طبقة النبلاء فقط؛ حيث قال: «المجتمع الذي أفرز صحيفة المدينة كان كل عضو فيه يتمتع بالمساواة أمام القانون والشرع. ذلك لأن الامتيازات المبنية على الطبقية أضحت ملغاة. فالغني والفقير، والشريف والوضيع، والعربي والعجمي، والأبيض والأسود، والرجال والنساء والأطفال والبالغون، كل عضو في أي فئة من هذه الفئات كان يتمتع بنفس الحقوق. وحتى مُحَمَّد ﷺ بصفته رسول الله لم يكن فوق القانون. فقد قال ﷺ في كلام بليغ ما مؤداه فلو أن فاطمة سرقَت (وهو أمر لا يمكن مجرد تصويره

¹ ابن كثير، اسماعيل. البداية والنهاية، تحقيق: علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2015م، ط4، 5/270.

² واشنطن ايرفينج (1783-1859م): ومؤرخ ودبلوماسي أمريكي سطع نجمه في النصف الأول من القرن التاسع عشر. عمل إيرفينغ سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية في إسبانيا بين عامي 1842 و 1846. من آثاره: "سيرة النبي العربي"، مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (1849م) وفتح غرناطة، في نحو 650 صفحة (1859م) و"تاريخ فتح غرناطة"، في 492 صفحة (1905م) وأوراق إسبانيا (مستخرج من مجلة الثقافة الإسلامية، في 568 صفحة، ومطبوع في فيلادلفيا. (العقيقي، نجيب. المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1964م 3/992.

<https://www.britannica.com/biography/Washington-Irving>

³ إيرفينغ، واشنطن. محمد وخلفاؤه، ترجمة: هاني يحيى نصري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999م، ص453.

لأن روح فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا روح معصومة ومنزهة عن ذلك)، لقطع محمد يدها، مستعداً بذلك لتطبيق حد السرقة على ابنته نفسها. وباعتبار الطابع التقدمي الأصيل الذي تميزت به صحيفة المدينة، يمكننا أن نتساءل لماذا يتم تجاهل هذه الوثيقة لصالح الاقتراحات الأقل ديمقراطية، والمتمثلة في "الديمقراطية اليونانية"، و"جمهورية روما"؟¹.

المطلب الثاني: نعت المجتمع الشرقي بالأبوية (البطيركية)²

ذهب قولني في كتابه المذكور إلى أن المجتمع الشرقي هيمن عليه منظور النظام الأبوي الذكوري القائم على تبني نظرة معادية للمرأة المسلمة، حيث يقول: «النساء معزولات بصرامة عن مجتمع الرجال، دائماً معزولات في منازلهن لا يتواصلن إلا مع أزواجهن وأبائهن ...، محجبات بعناية في الشوارع وبالكاد يجران على التحدث مع رجل من قضاء مصلحة ما... محكوم عليهن أن يكن في الهامش كأنهن ناقلات للعدوى»³.

وفي هذا السياق، لم يتردد قولني في تحميل الإسلام مسؤولية هذا الوضع، متهماً النبي ﷺ باحتقار المرأة وتهميشها داخل المجتمع بقوله: «إن محمداً بالرغم من شدة ولعه اتجاه النساء، إلا أنه لم يشرفهن بذكرهن في القرآن كجزء من الجنس البشري، ولم يشر إليهن لا في ممارسة شعائر الدين ولا في الثواب الأخروي»⁴.

¹ مورو، جان أندرو (إلياس إسلام). عهد النبي محمد ﷺ لمسيحي العالم، ترجمة: عمرو سلام ومحمد الكوش، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2018م، ص 84.

² البطيركية في اللغات الأجنبية (Patriarchy): كلمة يونانية، مكونة من مفردتين، هما (Patria): وتعني: الأسرة، و (Archy) وتعني: السيادة، وبذلك يكون معناها: سيادة الرجال في محيط الأسرة، كما أنها تعني مجتمعة: الأب الرئيس، أو حكم الأب، أو سلطة أب العائلة، أو رب العائلة. النظام الأبوي يعني هيمنة الرجال المنتظمة على النساء في بعض مجالات المجتمع ومؤسساته أو كلها. ينظر: غيدنز، أنتوني وصاتن، فيليب. مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة: محمود الذوايدي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطعائن، قطر، ط1، 2018م، ص 166- 171.

Roventa-Frumusani, Daniela. Concepts fondamentaux pour les études de genre, éditions Archives contemporaines, Paris, 2009, 58- 59.

³ « Les femmes sont rigoureusement séquestrées de la société des hommes Toujours renfermées dans leur maison, elles ne communiquent qu'avec leur mari, leur père, leur frère soigneusement voilées dans les rues, à peine osent - elles parler à un homme, même pour affaires et l'on doit les laisser passer à l'écart, comme si elles étaient une chose contagieuse ». Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte, op cit, volume2, p 334 - 335.

⁴ « Ce Mahomet, si passionné pour les femmes, ne leur a cependant pas fait l'honneur de les traiter dans son Qôran comme une portion de l'espèce humaine*, il ne fait mention d'elles ni pour les pratiques de la religion, ni pour les récompenses de l'autre vie » Ibid, Tome2, p.335.

وعطفاً على ما سلف، يعتقد قولني أن النظام الأبوي في الشرق الإسلامي مستمد من مرجعيتين أساسيتين:

- المرجعية الأولى متعلقة بالتعصب للعرق العربي.
- المرجعية الثانية مرتبطة بقصة إبراهيم عليه السلام وعزمه على ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام وفرضه الختان على الذكور من قومه. قال قولني: «إن الأب عند شعوب العرق العربي كان ولا يزال يتمتع بالحق في إصدار الحكم بالحياة أو المعاقبة بالموت داخل أسرته، أنظر كيف عزم إبراهيم على ذبح ابنه من دون أية معارضة داخل عشيرته، وكيف فرض الختان على شعبه المكون من 300 شخص ذكور وعبيد وأحرار»¹.

ولا مناص في هذا المقام من التنبيه إلى أن قولني لم يتحل بروح الأمانة العلمية عند تطرقه لموضوع وضعية المرأة في العصر العثماني؛ ذلك أنه تعمد نقل صورة نمطية وسلبية عن المرأة العثمانية دون أي سند علمي؛ بيد أن بعض الكتابات الاستشراقية كانت أكثر أمانة وموضوعية وإنصافاً حول هذه القضية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: المستشرقة والأديبة البريطانية ماري وورثلي مونتاغيو Mary Wortley Montagu (1689-1762م) التي أكدت أن المرأة المسلمة - بالرغم من اليشمك² - كانت تتبوأ مكانة مرموقة في عهد الإمبراطورية العثمانية؛ لأنها كانت تتمتع بحق التملك، وإدارة ممتلكاتها، وهو حق لم تنله المرأة البريطانية إلا في القرن العشرين³.

¹ « Chez les peuples de race arabe, le père de famille a toujours eu et a encore le droit de vie et de mort dans sa maison. Voyez comme Abraham se dispose à égorger son fils sans aucun obstacle humain, et comme il force tout son monde, plus de 300 mâles, esclaves et libres, à se faire la douloureuse amputation du prépuce ». Volney, Constantin François. Œuvres choisies, éditions Baudouin frères, Paris, 1827, p. 40.

² اليشمك: كلمة تركية معربة تعني حسب لغة الترك اللثام. وقد كان هذا اللفظ كان متداولاً في مصر خلال ق 19م، حيث دل على حجاب المرأة تغطي به رأسها ووجهها إلا عينها. إبراهيم، رجب عبد الجواد. المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، تقديم: محمود فهد حجازي، راجع المادة المغربية: عبد الهادي التازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2002م، ص 538.

³ عفيفي، محمد. عرب وعثمانيون: رؤى مغايرة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2008م، ص 81. ينظر: سنجر، أصلي. المرأة العثمانية بين الحقائق والأكاذيب، ترجمة: سمير عباس السيد زهران، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2014م.

لكن في المقابل يجب التشديد على أن الإسلام كدين بريء براءة الذنب من دم يوسف من النظام الأبوي المعادي للمرأة؛ لأن القرآن الكريم -الذي يحتوي بين دفتيه على سورة النساء- قد بشر المرأة المسلمة التقية بنيل الحياة الطيبة في الدارين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل 97).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: أُمُّكَ، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ أُمُّكَ، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ أُمُّكَ، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ أُمُّكَ»¹.

ومما يجلي معارضة الدين الإسلامي للأبوية في كافة أشكالها هو أن النبي ﷺ الذي مدحه الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب 21): كان يساعد زوجاته رضي الله عنهن في الأشغال المنزلية، حيث قال المستشرق البريطاني إدوارد جيبون Edward Gibbon (1737-1794)² في كتابه "اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها" مشيراً إلى هذا الخلق النبوي النبيل المساند للمرأة: «كان محمد حكيماً في احتقاره لأهله الملك ... لقد أوقد النار وكنس الدار وحلب الشاة وخصف نعله، ورقع ردائه المصنوع من الصوف بيده»³.

¹ البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، باب مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ، حديث رقم 5626.

² بابتي، عزيزة فوال. موسوعة الأعلام (العرب والمسلمين والعالميين)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م، ج3، ص 207.

³ جيبون، إدوارد. اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة: محمد سليم سالم، مراجعة: محمد علي أبو درة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، دط، 1969م ج3، ص 83.

المطلب الثالث: وصف الشرق الإسلامي بالجهل والتخلف

نعت المستشرق الفرنسي فولني الشرق الإسلامي بالوحشية، حيث يقول: «كانت في سوريا كما في مصر وحشية كاملة»¹. كما اعتبر أن مصر والشام إبان العصر العثماني كانت تعيش في ظلمات الجهل، مدعياً أن السلطنة العثمانية لم تول عناية تذكر بحقل العلوم الطبيعية والدينية (علم الفلك علم الطب وعلم الهندسة) قال فولني مجلياً مدى تفشي الجهل بين أوصال المجتمع المصري في تلك الحقبة التاريخية: «إن الحائل العظيم دون ثورة حسنة الطالع في مصر إنما هو الجهل المدقع الذي تتمرغ فيه الأمة (...) إن هذا الجهل الشائع بين جميع الطبقات يمتد بمفاعيله إلى جميع المعارف الأدبية والطبيعية والعلوم والفنون الجميلة (...) وإنك بالجهد تجد ساعاتياً في القاهرة وهو أوربي»².

كما نعت الدولة العثمانية بمكونها التركي والعربي بالعجز آنذاك عن إنجاب علماء نوابغ في الهندسة والفلك والطب والموسيقى ... حيث قال: «طوال قرون خلت تعاقب خلفاء على حكم العرب والترك، لكن هاتان القوميتان ليس لهما حالياً مهندسين ولا فلكيين ولا موسيقيين ولا أطباء»³.

وقد فسر فولني هذا القصور العلمي بعاملين أساسيين⁴:

عامل فكري ثقافي: يتمثل في ندرة الكتب وغياب المطبوعات في الشرق الإسلامي.
عامل سياسي: غياب الإرادة السياسية عند السلطنة العثمانية لدعم ورعاية العلم والعلماء في مصر والشام.

¹ « La barbarie est complète dans la Syrie comme dans l'Égypte ». Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte, op cit, volume2, p. 301.

² فولني. ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام، مرجع سابق، ج 1، ص 133-134.

« Mais un obstacle puissant à toute heureuse révolution en Égypte, c'est l'ignorance profonde de la nation ... Cette ignorance répandue, sur toutes les classes, étend ses effets sur tous les genres de connaissances morales et physiques, sur les sciences, sur les beaux-arts, même sur les arts mécaniques ... peine trouve - t - on au Kaire un horloger qui sache raccommoder une montre et il est Européen » Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte, op cit, volume1, p.175-176.

³ « Les siècles des khalifes passés pour les arabes et ils sont à naître pour les Turcs. Ces deux nations n'ont présentement ni géomètres, ni astronomes, ni musiciens, ni médecins.» Ibid volume2, p 302.

⁴ Ibid ; volume 2, p 312- 313.

يتوجب لفت الانتباه إلى أن قولني قد بالغ مبالغة ملحوظة في وصف الشرق الإسلامي العثماني بالجهل والتوحش؛ دليل أن الحكم العثماني - بالرغم من أنه كان أقل اهتماماً بمساندة البحث العلمي مقارنة بالعصر العباسي الذهبي فترة حكم هارون الرشيد وخليفته المأمون - إلا أنه أنجب عقولاً تركية تركت بصمات خالدة في الطب والفيزياء والفلك والفنون العسكرية والموسيقى ...¹ ومن صفوة هؤلاء العلماء، يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر: العلامة التركي آق شمس الدين (ت 1459م) الذي كان فقيهاً وطبيباً وعالم نبات وصيدلياً وكان له قصب السبق في وضع تعريف دقيق للميكروب خلال القرن 15م في عصر لم يعرف بعد اختراع الميكروسكوب. وبعد أربعة عقود من حياة هذا الطبيب، جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستور Louis Pasteur (1822 - 1895م) ليقوم بأبحاثه حول الميكروب، متوصلاً إلى النتيجة نفسها.²

ومما يعكس بشكل بين هذا الرقي الطبي الذي كانت تعيشه الإمبراطورية العثمانية، هو أن المستشرقة البريطانية Mary Wortley Montagu أشارت في كتابها الموسوم بـ "رسائل من تركيا 1716-1718م" إلى أن العثمانيين ينسب لهم قصب السبق في اختراع تطعيم ناجع ضد مرض الجدري La variole، في الوقت الذي كانت بريطانيا عاجزة عن مكافحة هذا الداء الخطير. ففي إحدى رسائلها أخذت ماري تُطمئن أختها بالأوضاع الصحية في مدينة أدرنة (الواقعة في أقصى جنوب غرب تركيا) حيث كانت تقيم فيها عام 1717م بقولها: «تعرفين أن مرض الجدري لا فرار منه، وهو منتشر جداً بيننا (في بريطانيا)، أما هنا فهو لا يؤدي بالمرّة بسبب اختراعهم لنوع من التطعيم ضده يتعاطونه باعتباره دواءً».³ ووضحت هذه المستشرقة أن هذا التطعيم السنوي للجدري يكون عادة في بداية كل خريف في شهر سبتمبر، وتعتز لأختها أنها «مقتنعة تماماً بأمان هذه التجربة؛ لأنني أنوي تجربة هذا المصل مع ابني العزيز. لدي من الإحساس الوطني ما يدفعني أن آخذ على عاتقي نشر

¹ من أجل الاطلاع على تفاصيل وافية حول هذه المسألة، ينظر: أوغلو، أكمل الدين إحسان. التراث العلمي العثماني، ترجمة: ماجدة مخلوف، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ط1، 2021م.

² الصلابي، علي محمد. الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط1، 2001م، ص 117.

³ مونتجو، ليدي ماري وتلي. رسائل من تركيا 1716-1718م، ترجمة: إيزابيل كمال، إعداد وتقديم ومراجعة: فاطمة موسى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2006م، ص 105.

هذا الاختراع المفيد في إنجلترا»¹. وخلق بالذكر أن العاهل الفرنسي لويس 15 كان طريحاً للفراش بسبب هذا الداء، فنصحته أطباء البلاط بأخذ اللقاح العثماني، إلا أنه أحجم عن الأخذ بهذه النصيحة بسبب آراء المؤسسة الكنسية المحرمة لذلك، ليلقى حتفه بسبب معاناته من مضاعفات هذا المرض سنة 1774 م².

ومما يبين بجلاء شعور الكراهية الذي كان يكنه قولني نحو الإسلام هو احتقاره للأذكار الدينية، من قبيل: التهليل، والتكبير، والتسبيح... حيث اعتبرها بمثابة «تعبد ناشئ عن الكبرياء، ومصحوب بجهل عميق، ليس سوى خرافة متعصبة، تصبح سبباً لآلاف الاضطرابات»³.

قال الدكتور إدوارد سعيد في كتابه الموسوم بـ "الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق" مؤكداً حضور هذا التصور الإسلام فوبي في فكر قولني: «كانت آراء قولني معادية بصورة لا تقبل النقض للإسلام، باعتباره ديناً ونظماً للمؤسسات السياسية»⁴.

¹ المرجع نفسه، ص 106.

² العوض، محمد يوسف. ومضات عثمانية، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ط1، 2019 م، ص 128.

³ « Cette dévotion née de l'orgueil, et accompagnée d'une profonde ignorance, n'est qu'une superstition fanatique, qui devient la cause de mille désordres.» Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte, op cit, volume2, p. 316

⁴ سعيد، إدوارد. الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، مرجع سابق، ص 153.

المبحث الثالث: الغزو الإمبريالي الفرنسي ضد مصر والشام (1798 - 1801م) وتأثره بأفكار فولني

المطلب الأول: تحرير مفهوم الإمبريالية

الإمبريالية لغة مشتقة من اللفظ اللاتيني أمبريوم imperium وتعني الحكم والسيطرة على أقاليم كبيرة¹. والإمبريالية لها عدة تعريفات اصطلاحية، منها:

✓ الإمبريالية سعي دولة ما لبسط نفوذها وسلطتها وتأثيرها عبر الاحتلال العسكري والثقافي والسياسي. الإمبريالية هي مثابة هيمنة اقتصادية وعسكرية وسياسية لدولة على دولة أخرى².

✓ قال الزعيم السياسي السوفييتي فلاديمير لينين Vladimir Lenin (1870-1924م) معرّفاً الإمبريالية: «من سمات الإمبريالية الجوهريّة تنافس عدد من الدول الكبرى في النزوع إلى السيطرة، أي إلى الاستيلاء على الأراضي بمقدار ما تحتاجها لإضعاف الخصم وتقويض سيطرته»³.

✓ الإمبريالية مصطلح سياسي اقتصادي كلاسيكي لا يعرف بصورة منفصلة عن السياسة والاقتصاد. الإمبريالية تعني السيطرة على مقدرات الشعوب ... هي عملية سياسية عامة مبنية على دوافع التوسع والغزو والاحتلال والسيطرة وحب الاستحواذ على كل شيء⁴.

✓ الإمبريالية نظام توسع فيه دولة ما سلطتها إلى السيطرة بشكل مباشر على الأرض والموارد والناس خارج حدودها⁵.

¹ Steinmetz, George, « Empire et domination mondiale » in revue Actes de la recherche en sciences sociales 2008/1-2 (n° 171-172), pages 4 à 19, p.10.

² المجالي، رضوان محمود. الوجيز في النظام الاقتصادي الدولي، دار ورد الأردنية، عمان، ط1، 2021م، ص 232.

³ لينين، فلاديمير. الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، دار التقدم، موسكو، 1967م، ص 119.

⁴ المومني، محمد أحمد. الجغرافيا السياسية والجيوبولوتيك: في القرن الواحد والعشرين، دار الكتاب الثقافي، أربد، الأردن، 2005م، ص 129-130.

⁵ أونيل، باتريك. مبادئ علم السياسة المقارن، ترجمة: ياسل جبيلي، تدقيق: حسام الدين خضور، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2012م، ص 469.

المطلب الثاني: قولني بين الجاسوسية¹ وتحريضه الدولة الفرنسية على احتلال التراب المصري

1. البعد التجسسي الاستخباراتي لرحلة قولني نحو مصر والشام:

ذهب المستشرق الفرنسي جان غولي Jean Gaulmier (1905-1997م) في كتابه الموسوم بـ "المنظر قولني" L'idéologue volney الصادر سنة 1951م إلى أنه من المحتمل أن قولني قد قام بهذه الرحلة بإيعاز من وزير الخارجية الفرنسي تشارلز غرافيه، كونت دي فيرجين Charles Gravier de Vergennes (1719-1787م) خلال عهد العاهل الفرنسي لويس السادس عشر بحثا عن تحقيق مأرب تجسسية واستطلاعية استعمارية².

وإلى الرأي نفسه ذهب الكاتب الصحفي الفرنسي أندي تيريف André Thérive (1891-1967م) عندما أكد أن قولني كان جاسوسا يعمل لصالح فرنسا في مصر والشام بتجنيد من وزير الشؤون الخارجية الفرنسية آنذاك³.

2. تحريض قولني لفرنسا على غزو مصر:

لقد حرص المستشرق والرحالة الفرنسي بشكل صريح وواضح دولته على احتلال الأراضي المصرية، حيث قال متنبئا بانهايار صرح الامبراطورية العثمانية وتقاسم تركتها بين الدول الأوروبية: «شيء وحيد قادر أن يعوض فرنسا، شيء وحيد جدير الطموح، ألا وهو الاستيلاء على مصر»⁴.

وبطريقة برغماتية ميكيفيلية قدم قولني ثلاثة عوامل أساسية لهذا المشروع الإمبريالي⁵:

¹ الجاسوسية لغة: مصدر صناعي من كلمة الجاسوس والجاسوس: مفرد جواسيس، وهو العين الذي يتجسس الأخبار ثم يأتي بها، وعمل الجاسوس يُدعى الجاسوسية". حسب اصطلاح علماء القانون الدولي الجاسوس هو الشخص الذي يعمل في خفية أو تحت ستار مظهر كاذب في جمع أو محاولة جمع معلومات عن منطقة الأعمال الحربية لإحدى الدول المتحاربة بقصد إيصال هذه المعلومات لدولة العدو. الزير، محمد سليمان. الأمن والأجهزة الأمنية من وجهة نظر إسلامية، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2013م، ص 109.

² Gaulmier, Jean. L'Idéologue Volney, (1757-1820). Genève-Paris, Slatkine Reprints, 1980 (Rpt : Beyrouth, 1951), pp. 58-60.

³ El Diwani, Rachida. Entre l'Orient et L'Occident, op cit, p.92

⁴ « Un seul objet peut indemniser la France, un seul objet est digne de son ambition, la possession de l'Égypte. » Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte ,op cit, volume2, p.476.

⁵ Ibidem, pp 476- 477.

عامل مناخي: توفر مصر على مناخ صحي.

عامل اقتصادي: الاستفادة من عائدات قوافل الحجاج المتوجهة نحو الحجاز كما إن مصر الغنية بالقمح والأرز والقطن، هي بوابة التجارة الصحراوية المتعلقة بالذهب.

عامل جيوسياسي: تمتع مصر بموقع جيو استراتيجي لكونها همزة الوصل بين ثلاثة قارات: أوروبا وأفريقيا وآسيا كما أن إطلالها على البحر الأحمر جنوباً يشكل فرصة سانحة للملكة الفرنسية كي تنافس النفوذ البريطاني في الهند.

حري بالذكر أن قولني ليس هو أول مستشرق اقترح فكرة غزو فرنسا؛ إذ سبقه لذلك الفيلسوف والدبلوماسي الألماني غوتفر لايبنز Gottfried Wilhelm Leibniz (1646-1716م) الذي أشار على لويس 14 Louis XIV هذا المشروع سنة 1671م بغية صرف أنظار فرنسا عن غزو الأراضي الهولندية؛ لأن مصر حسب منظور لايبنز ما هي إلا هولندا الشرق، وفي حال أصبحت فرنسا سيدة هذه البلاد فستسيطر على البحر الأبيض المتوسط وستستولي على طريق الهند الشرقية أي على تجارة العالم.¹

وبغية تعويض خسارة فرنسا حرب السنوات السبع (1756-1763م)² اقترح الدبلوماسي الفرنسي إيتيان دي سواسيول Étienne-François de Choiseul (1719-1785م) المشروع ذاته على الملك الفرنسي لويس 15 Louis XV.³ إلا أن هذا المخطط الإمبريالي لم يتحقق على أرض الواقع إلا في عصر الملك الفرنسي لويس 18، إذ نجح الجيش الفرنسي المكون من 36 ألف جندي منهم أكثر من 2200 ضابط بقيادة نابوليون بونابرت

¹ مرشو، غريغوار منصور. مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1996م، ص 124، 125.

Khader, Bichara. Le monde arabe expliqué à l'Europe : histoire, imaginaire, culture, politique, économie, géopolitique, éditions Harmattan, Paris, 2009, p.58. Montferrand, Bernard de. Diplomatie : des volontés françaises, éditions Alban, Versailles 2006, p. 131.

² حرب السنوات السبع (1756-1763م) وقعت بسبب الصراع العسكري الاستعماري الذي كان حامى الوطيس في أمريكا بين فرنسا وبريطانيا. وقد انتهت هذه الحرب بإبرام معاهدة باريس سنة 1763م التي جعلت من بريطانيا القوة الاستعمارية الأولى على حساب فرنسا. المدني، محمد نمر. أعداء الغرب، دار مؤسسة رسلان، دمشق، ط1، 2009م، ص 391.

³ El Diwani, Rachida. Entre l'Orient et L'Occident, op cit, p.109

Napoléon Bonaparte (1769-1821م) من احتلال مصر في أكتوبر 1798م¹؛ إذ كانت آنذاك إيالة عثمانية مملوكية تابعة رسمياً للسلطان العثماني سليم الثالث (ت 1808م)².

المطلب الثالث: قولني ملهم الحملة الفرنسية ضد مصر والشام

لقد وجدت الحملة الفرنسية ضد مصر والشام ضالتها المنشودة في كتاب "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام" بحكم أن هذا السفر التاريخي مثَّلَ بامتياز البوصلة التي أرشدت القوات الفرنسية الغازية أثناء توغلهم في الأراضي المصرية. قال الماريشال الفرنسي لويس ألكسندر برتیه Louis-Alexandre Berthier (1753-1815م) مجلياً الأثر العميق الذي خلفه هذا الكتاب في هذه الحملة: «إن اللمحات السياسية عن موارد مصر ووصف آثارها وتاريخ عادات وتقاليده مختلف الأقوام التي تسكنها، كلها أمور تعامل معها المواطن قولني بصدق وعمق؛ إذ أشقى غليل كل الملاحظين الذين جاءوا من بعده. وبالتالي كان عمله هذا مرشداً للفرنسيين في مصر، إنه الوحيد الذي لم يخدعهم قط»³.

عطفاً على ما سبق، يتوجب لفت الانتباه إلى أن هذا الكتاب كان يتوخى تمكين الإنسان الغربي من استيعاب وامتصاص الصدمة الحضارية عند نزوله بالشرق الإسلامي خلال أواخر ق 18م. وهو ما فطن إليه المفكر الأمريكي ذي الأصول الفلسطينية إدوارد سعيد (ت 2003م) بقوله: «كان عمل قولني يمثل كتاباً إرشادياً أو دليلاً قادراً على تخفيف الإحساس بالصدمة الإنسانية وهو ما قد يتعرض له الأوروبي الذي يخبر الشرق خبرة مباشرة»⁴.

¹ لورانس هنري وآخرون. الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995م، ص 37.

Cyr, Pascal. Egypte, la guerre de Bonaparte, éditions L'Harmattan, Paris, 2015, p18.

² سليم الثالث (1761- 1808م) سلطان عثماني (1789 – 1807م) وضع برنامجاً طموحاً للإصلاح الإداري، والعسكري غرف بالنظام الجديد". وأنشأ عدداً من الكليات الحربية. نغم عليه الرجعيون، فاضطر إلى إلغاء ما استحدث من إصلاحات، ومع ذلك فقد خلعه خصومه، وألقوا به في السجن (عام 1807م)، حيث مات مقتولاً عام 1808م. باقتي، عزيزة فوال. موسوعة الأعلام (العرب والمسلمين والعالميين)، مرجع سابق، ج 2، ص 382.

³ « Les aperçus politiques sur les ressources de l'Égypte, la description de ses monuments, l'histoire des mœurs et des usages des diverses nations qui l'habitent, ont été traités par le citoyen Volney avec une vérité et une profondeur qui n'ont rien laissé à ajouter aux observateurs qui sont venus après lui. Son ouvrage était le guide des Français en Égypte ; c'est le seul qui ne les ait jamais trompés. ». Barni, Jules Romain. Les moralistes français au dix-huitième siècle, op cit, p195.

⁴ سعيد، إدوارد. الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، مرجع سابق، ص 154.

وقال المؤرخ المصري الدكتور أحمد زكريا الشلق (مواليد 1948م) في كتابه الموسوم بـ "الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر"، مشيراً إلى تأثير الجنرال بوناپرت بفولني: «كتاب فولني الشهير رحلة إلى مصر والشام الذي نشر عام 1787م فقد قدم معلومات مهمة وخدمات جليّة، حتى للعسكريين، فاعتبره بوناپرت توراة مغامراته الإسلامية في مصر، ومن ثم خص به قادة جنوده».¹

خاتمة:

في ختام هذا المقال توصلت إلى النتائج الآتية:

- إن فرنسوا فولني وهو أحد أعلام الاستشراق الفرنسي خلال عصر الأنوار بفرنسا في القرن 18م لم يستنكف عن الجهر بأفكاره الإسلام فوبية التي تروم تشويه صورة الإسلام في العقل الجمعي الغربي. وهو ما ظهر بجلاء في سفره الموسوم بـ ثلاثة أعوام في برّ مصر والشام الصادر سنة 1787م: إذ حوى هذا الكتاب الذي يندرج في نطاق أدب الرحلة جملة من الشبهات والمزاعم التي تستهدف بشكل أساسي الحط من شأن الإسلام، من أبرزها:
- ✓ اتهام الإسلام بالإسهام في تثبيت أقدام الاستبداد السياسي الذي كانت تعيشه كل من مصر والشام في ظل الحكم العثماني.
- ✓ وصف النبي ﷺ بالذكورية التي تقوم على أساس الإقصاء الاجتماعي الممنهج للمرأة.
- ✓ الادعاء بأن الإسلام دين يتسم بتكريس الجهل والتخلف ومحاربة العلم والتقدم.
- إن فرنسوا فولني لم يكن فحسب مجرد مستشرق ورحالة، بل يمكن عده جاسوساً عمل بإخلاص وتфан في سبيل خدمة المشروع الإمبريالي الفرنسي في مصر والشام. ومن ثمة كان كتابه "ثلاثة أعوام في بر مصر والشام" -الذي رسم خريطة دقيقة للحالة الجيوسياسية والاجتماعية والدينية للشرق الإسلامي إبان الحكم العثماني- مرشداً للضباط والجنود والعلماء والمفكرين الذين شاركوا في الحملة الفرنسية ضد مصر والشام بقيادة نابليون بوناپرت سنة 1798م.

¹ الشلق، أحمد زكريا. الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر. دار الشروق، القاهرة، ط1، 2006م، ص86.

ومن هذا المنطلق، يمكن القول بأن الاستشراق السياسي قد جسد حجر الزاوية التي قام عليها المشروع الاستعماري الفرنسي برمته في كل من المغرب الكبير والشام؛ بدليل أن ألمع المستشرقين الفرنسيين في القرن 19م ومطلع القرن 20م كانوا يعملون بصفتهم مستشارين في إدارة المستعمرات الفرنسية¹. وهو ما ألمع إليه المستشرق الأمريكي المعاصر زكاري لوكمان Zachary Lockman المختص في التاريخ والدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بقوله: «الاستشراق كمشروع فكري كان مرتبطاً بطرق مهمة بالاستعمار الأوروبي المعاصر، وأن نوع المعرفة الذي كان الاستشراق كفرع بحثي يميل لإنتاجه قد استعمل كثيراً لإضفاء الشرعية على ممارسة السلطة الأوروبية على العالم الإسلامي وتدعيمها²».

أهم المراجع والمصادر:

القرآن الكريم برواية ورش.

1. كتب عربية ومعربة:

- (1) بابتي، عزيزة فوال. موسوعة الأعلام (العرب والمسلمين والعالميين)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م.
- (2) بولعوالي، التجاني. الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب: نحو مقارنة تأصيلية تفكيكية لظاهرة الإسلاموفوبيا، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2021م.
- (3) الزمل، ناصر بن محمد. لماذا يكرهوننا...؟، مكتبة العبيكان للنشر، الرياض، 2004م.
- (4) سعيد، إدوارد. الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2006م.
- (5) سنجر، أصلي. المرأة العثمانية بين الحقائق والأكاذيب، ترجمة: سمير عباس السيد زهران، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2014م.
- (6) شاكر، إياد صلاح. ظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) في الغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2019م.
- (7) الشلق، أحمد زكريا. الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2006م.
- (8) العقيلي، نجيب. المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1964م.

¹ نذكر منهم: عميد الاستشراق الفرنسي وشيخ المستشرقين سلفستر دي سامي Silvestre de Sacy (ت 1838م)، ولويس ماسينون Louis Massignon (ت 1962م)، وغابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux (ت 1944م)، وليفي بروفنسال Lévi-Provençal (ت 1956م) وغيرهم كثير من الذين كانوا مستشارين في وزارة المستعمرات الفرنسية. الوهبي، عبد الله بن عبد الرحمن. الاستشراق الجديد مقدمات أولية، شركة آفاق المعرفة، الرياض، ط3، 2021م، ص 56.

² لوكمان، زكاري. تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2007م، ص 159.

- (9) العليان، عبد الله علي. الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003م.
- (10) ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979م.
- (11) الفزّاك، أحمد. المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشارك الإنساني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2021م.
- (12) قرم، جورج. تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة: رلى ذبيان، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011م.
- (13) اللهيبي، فائز صالح. إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية والواقع الإسلامي، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2009م.
- (14) لورانسن هنري وآخرون. الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995م.
- (15) لوكممان، زكاري. تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2007م.
- (16) المدني، محمد نمر. أعداء الغرب، دار مؤسسة رسلان، دمشق، ط1، 2009م.
- (17) مرشو، غريغوار منصور. مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1996م.
- (18) ابن منظور، جمال الدين محمد. لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر وعبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م.
- (19) مورو، جان أندرو (إلياس إسلام). عهود النبي محمد ﷺ لمسحي العالم، ترجمة: عمرو سلام ومحمد الكوش، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2018م.
- (20) مونتجو، ليدي ماري وتلي. رسائل من تركيا 1716-1718م، ترجمة: إيزابيل كمال، إعداد وتقديم ومراجعة: فاطمة موسى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2006م.
- (21) ابن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1969م.

2. كتب باللغة الفرنسية:

1. Barni, Jules Romain. Les moralistes français au dix-huitième siècle, éditions Germer Baillière, Paris, 1873.
2. Cyr, Pascal. Égypte, la guerre de Bonaparte, éditions L'Harmattan, Paris, 2015.
3. El Diwani, Rachida. Entre l'Orient et L'Occident, éditions Lulu, press inc, morrisville, USA , 2006.
4. Gaulmier, Jean. L'Idéologue Volney, (1757-1820). Genève-Paris, Slatkine Reprints, 1980 (Rpt : Beyrouth, 1951),
5. Khader, Bichara. Le monde arabe expliqué à l'Europe : histoire, imaginaire, culture, politique, économie, géopolitique, éditions Harmattan, Paris, 2009.
6. Quellien, Alain. La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française, éditions Emile Larose, Paris, 1910.
7. Volney, Constantin François. Œuvres choisies, éditions Baudouin frères, Paris, 1827.
8. Volney, Constantin-François. Voyage en Syrie et Égypte pendant les années 1783, 84 et 85, éditions Courcier, 4EME édition, 1807.